

المرآة المكسورة

الكتاب: المرأة المكسورة

النوع : رواية

المؤلف: هديل ديب

التصحيح اللغوي: دعاء عطية

تصميم الغلاف: منار

التنسيق الداخلي: محرزق

الطبعة الأولى: 2026

رقم الإيداع: 9595\2026

الترقيم الدولي: 978-633-8490-04-1



الناشر: دار انطلاق للنشر والتوزيع

للتواصل: startpublishing372@gmail.com

من هنا تبدأ الحكايات ويبدأ الاثر

تليفون الدار: 01155799321

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

وأي إقتباس، أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية، يُعرض صاحبه للمساءلة القانونية، أما حقوق الملكية الفكرية والآراء، والمادة الواردة في الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير.

امراة المكسورة

رواية

هديل ديب

انطلق

إهداء

إلى عائلتي، وزوجي، وكل صديق دعمني حتى أخطو أولى
خطواتي في عالم الرواية..
لولاكم لما شهدَ هذا العمل النور.

__ هديل ديب

غرفة واسعة، جدرانها بيضاء بإضاءة دافئة، رفوف مرتبة، ساعة حائط لا يُسمع لها صوت. تجلس هي مقابلة للطبيبة، كفاها متشابكتان في حجرها.

الطبيبة:

— كيف كان أسبوعك؟

تبتسم بتردد:

— أفضل. أستطيع القول بعد مرور شهرين بأن نومي تحسّن، ومزاجي أيضًا، والصداع الشديد تخلّصت منه أيضًا، والفضل للأدوية التي وصفتها لي...

صمتت لثوانٍ، عيناها تتألّلان، ثم أردفت:

— وأضحك أكثر الآن... أدهم يقول إنّي بدأت أعود "أنا".

الطبيبة:

— أنتِ؟ ماذا تقولين؟

تتردد قليلاً...

— أنا... ممتّة. ممتّة لكل شيء: لنجاتي من الحادث، ولفرستي الجديدة في الحياة، ولزوجي أدهم. ما كنتُ وصلت لهذه المرحلة من دونه. هو رتب مواعيدي... وحتى ذكرني اليوم بالجلسة.

ثم أضافت بنبرة ضاحكة خجولة:

— أنا محظوظة، تعلمين، ليست كل النساء اللاتي يتعرّضن لحادث بهذه الخطورة ينجون منه، وليست كل امرأة تتعرّض لإصابة بالغة في الدماغ تُفقد أربعة عشر- عامًا من ذاكرتها تستيقظ لتجد نفسها متزوجة من شخص نبيل وطيب يعينها على التعافي... مثلي!

الطبيبة وهي تبتسم:

— هل يساعدك أدهم في تذكّر الأمور؟

— نعم، يحاول دومًا، لكن بدون أن يضغط عليّ.

الطبيبة تُدوّن:

— جميل. ماذا تتذكرين "أنتِ" عن هذا الأسبوع؟

تنظر ليدها بلا وعي، تلمس خاتمها، وتقول:

— أتذكر رائحة خبز الصباح... ضحكته عندما انسكبت القهوة... و...

— تتوقف عن الحديث —

الطبيبة:

— و...؟

— لا شيء محدد. كأنّ الصور تأتي بلا ترتيب. أشياء صغيرة، تفاصيل...
ثم فراغ.

الطبيبة:

— طبيعي. سنفرّق بين أمرين: ما تتذكرينه ذاتياً، وما "تعرفينه" لأنّ أحداً
رواه لك.

تومئ برأسها وتقول:

— أدهم يساعدي كثيراً. كلما سألت عن شيء، لديه جواب.

الطبيبة:

– رائع أن يكون هناك سند. وفي الوقت نفسه، نريد أن نمنح ذاكرتك مساحة تتنفس فيها.

تبتسم بخجل وترد:

– أحيانًا أشعر أنني أستعجل النتيجة... أريد أن أملأ الفراغ بأي كلام مطمئن.

– لنجرب تمرينًا بسيطًا هذا الأسبوع: قائمة من عمودين. الأول "تذكرته"، والثاني "قيل لي". لن نحكم على أي عمود، فقط نلاحظ.

تأخذ نفسًا عميقًا:

– حسنًا.

ترشف الطبيبة القليل من الماء الذي في كوبها وترد:

– أخبريني عن لحظة شعرت فيها بالطمأنينة.

تفكر، وعيناها تتحركان بتأمل، وتحجب:

— مساء الباردة. كنا نسمع موسيقى خفيفة. وضعتُ رأسي على كتفه.
كان كل شيء طبيعيًا... كأني كنت هناك من قبل.

الطبيبة:

— هذا جيّد. أحيانًا الإحساس يسبق الصورة. لو جاءت صورة لاحقًا،
اكتبيها كما جاءت — بأصواتها وروائحها — من غير محاولة تفسير.

تبتسم هذه المرّة بثبات أكبر:

— سأفعل.

ثم جلست تتأمل الأرضية الخشبية وهي تعصر يديها المرتجفتين. الطبيبة لم
تقاطعها، اكتفت بالانتظار. قالت أخيرًا بصوت خافت:

— الغريب يا دكتورة سارة، أيّ وأنا أحاول أن أتذكر... أستمّر بالشعور
بأن هناك فجوة. مثل مساحة سوداء. كلما اقتربتُ منها أشعر بالخوف!

مالت الطيبة قليلاً للأمام:

– أحياناً العقل يُخفي أشياء عتاً لحمايتنا يا نور... لكن هذا لا يعني أنه علينا الهرب منها.

تابعت نور:

– حتى زوجي... لا أعلم أحياناً كيف يجب عليّ أن أتعامل معه. إنه إنسان لطيف للغاية ومنتهفهم، يقف بجائبي، يصبر على ثقلباتي المزاجية، لكن هناك صوتاً داخلياً يزعجني ويشتت أفكاري، ولا أعلم ماهيته.

كتبت الطيبة ملاحظة قصيرة على دفترها:

– سنعمل سوياً لنفهم مصدر هذا الصوت. لكن الأهم أن تعطي نفسك مساحة كي تسمعيه، دون تهوّر أو ردود أفعال سريعة. الذاكرة ستعود إليك تدريجياً، هذا ما نأمله طبيّاً. ستعود على شكل صور مبعثرة أو أحاسيس. حاولي أن تدوّنيها. كل تفصيل، حتى لو كان غريباً أو صغيراً، ممكن أن يساعدنا في تركيب الصورة الكاملة.

يدأها متشابكتان فوق حجرها، كأنها تتمسك بشيء غير مرئي. كان صمتها في البداية أثقل من أن يحتمل، حتى الطبيعة تركت لها مساحة كي تلتقط أنفاسها.

قالت أخيراً بصوت خافت:

— مشكلتي ليست أنني نسيت أهم سنوات من حياتي السابقة، فيها تأسيس عملي وزواجي... مشكلتي أنني أصبحت أحسّ بفراغ داخلي لا أعرف له معنى. كل يوم أستيقظ أشعر أنني بدأت من الصفر، وكأنني ورقة بيضاء الناس يكتبون عليها... لكن أنا؟ أنا عاجزة عن كتابة سطر واحد.

دوّنت الطبيعة ملاحظة سريعة وسألتها:

— وهذا الفراغ... كيف تشعرين به؟

تردّدت قليلاً ثم قالت:

— مثل حفرة... لا قاع لها. أحاول أن أملأها بأي شيء: ابتسامة، حديث عابر، حتى لحظات فرح قصيرة... لكنها تظل فارغة.

أطرقت الطيبة رأسها باهتمام، ثم ردت بهدوء:

– الفراغ ليس دائماً شيئاً نخاف منه. أحياناً هو مساحة جديدة تنتظر منك أن تختاري ماذا تريدين أن تعمري فيها.

رفعت عينيها نحو الطيبة بعجز، وكأنها تريد أن تصرخ:

– لكن كيف؟ كيف أستطيع أن أعمّر وأنا لا أعرف من كنت؟ وماذا أردت في حياتي؟!

لكنها اكتفت بأن تهز رأسها وتترك السؤال يتردد داخلها بلا جواب.

ردت الطيبة بابتسامة حانية:

– الوقت... الوقت يا نور كفيل بأن يُعالج كل شيء.



الشمس ساطعة، والرطوبة عالية في منتصف شهر يوليو في إسطنبول، ولكن نسيم البوسفور العليل يهوّن المسير على نور التي تهرول على ساحل أسكودار محاولة اللحاق بالعبّارة بعد أن أنهت جلستها العلاجية

مع الطيبة. قفزت على متن العبّارة، تجاوزت الركاب، ثم أخذت مقعدًا جانبيًا على الأطراف يُطل مباشرة على البحر.

جلست وأخذت تملأ صدرها بالهواء الطلق، مدّت قدميها نحو الأمام، وأرخت ظهرها للخلف، وراحت تراقب طيور النورس البديعة وهي تزين السماء وتراقص بين الغيوم برقة، حتى قاطع سكونها صوت رنين هاتفها.

مدّت يدها لداخل حقيبتها وأمسكت بالهاتف، ابتسمت ثم أجابت:

— مرحبًا أدهم!

خرج صوت رجولي رخيم من الساعة:

— مرحبًا نور، أين أنتِ عزيزتي؟

— أنا في العبّارة، في طريق العودة للمنزل.

تهدد بشكل سريع وتابع:

— لا أعلم لماذا لم تختاري طيبة تعمل في عيادة أقرب إلينا!

— لا بأس، لا تقلق عليّ، أنا بخير ومستمعة بالرحلة. سأصل إلى مرفأ
بشككتاش خلال 10 دقائق، وسأستقل الباص من هناك إلى حيّنا.

— لم تذهبي بسيارتك للمرفأ؟!

— كلا!.. هناك ازدحام شديد اليوم. لا بأس، لا تقلق عليّ، سأكون بخير!

— آه يا نور... دوّمًا تشغلين تفكيرى. أنا أخشى- أن يصيبك الصداع
مجددًا أو أن تفقدي الوعي!

— أنا بخير أدهم، صدقتى!.. سأكون في المنزل في غضون 25 دقيقة على
أقصى تقدير!

تنهد ثم أردف:

— حسنًا... أراك في المنزل... أحبك.

صمتت للحظة، ثم قالت بنبرة مضطربة:

— وأنا أيضًا أحبك.

أغلقت الخط، ثم عادت تستأنف جلسة تأملها لمياه البحر الصافية، غارقة في سحرها. فتلك النسائم الرقيقة والمنظر الخلّاب لم تنجح إصابتها بإخضاعها للنسيان.



كانت الشمس تغرب عند وصول نور إلى باحة منزلها الكبير المميز. توقّعت لدقائق أمامه ببضعة أمتار، تتأمل الفيلا الجميلة التي تعيش فيها في أحد أرقى أحياء إسطنبول. ورغم جمال تفاصيلها، شعرت بانقباضة اعتادت أن تشعر بها دومًا في كلّ مرّة تعود فيها إلى المنزل. حاولت طرد شعورها المزعج هذا. فتحت البوابة الخارجية الكبيرة، وتقدّمت باتجاه الباب الرئيسي الداخلي. أدخلت مفتاحها، وقبل أن تقوم بتدويره فاجأها أدهم بفتح الباب من الجهة الأخرى. مدّ يديه بصورة خاطفة، ثم قام بسحبها نحوه ضامًا إيّاها. وبعد ثوانٍ من شعورها المختلط بين الخجل والتوتر، رسمت ابتسامة لطيفة على وجهها، بينما خاطبها أدهم قائلاً:

— لقد قلقتُ عليكِ هذه المرّة حقًا، تأخرتِ لدى الطيبة هذا اليوم، ثم إنني حقًا لم أحبذ أن ترددي على طبيب في كاديكوي. كان من الأفضل

أن تحجزني لدى الطبيب النفسي الذي رشَّحه لنا أخي في باشاك شهير، لا
يبعد سوى سبع دقائق بالسيارة!

ثم انتبه أنه قد بالغ في حديثه عندما لاحظ تعابير الاستياء على وجه نور،
فتوقَّف عن الاسترسال، وعدَّل لهجته المعاتبة واستبدلها بأخرى لطيفة:

— أعتذر حبيبتى، مرحبًا بعودتك... هاتي عنكِ الحقيقة. أنا أعلم أنني
أُتصرَّف كالمزعج عندما أقلق عليك.

تنهدت نور وردَّت بهدوء:

— مرحبًا... أعلم، لا بأس. هوّن عليك، أنا أنفهم قلقك على وضعي
الصحي، لكنني أصبحت أفضل، أعدك. ثم إنني مرتاحة مع طبيبتى، فلا
تقلق!

ابتسامته المطمئنة جعلتها تشعر للحظة كأنها تعود إلى مكانٍ مألوف...
لكنها في العمق لم تستطع أن تحدد لماذا بدا كل شيء غريبًا لسببٍ مجهول.

رائحة الخشب في المدخل، والصور المؤطرة على الجدار واجهتها بابتساماتٍ
مجمدة لا تثير في داخلها سوى الحيرة. مدَّ أدهم يده ليمسك يدها بحركة
عفوية، بينما كان يحدِّق في عينيها كأنه يبحث عن شيء ما.

حاولت أن تبادله ابتسامه، لكنها شعرت ببرودة غريبة في أطرافها. كل ما أرادته هو أن تبدو طبيعية... أن تبدو زوجة كما يُتَوَقَّع منها أن تكون. رسمت بسمه مهذبة على ثغرها، طبعت قبلة سريعة على خده، ثم تحركت بشكلٍ أسرع نحو الدرج، وصاحت وهي تصعد دون أن تنظر للخلف:

— سأقوم بتغيير ملابسِي وأعود إليك، سأعدُّ العشاء بنفسِي الليلة!

ابتسم أدهم وراح يراقبها وهي تصعد، ثم سرعان ما اختفت ابتسامته بعد أن تلاشت نظراته في الفراغ.

— من حُسن الحظ أن مهارتي في الطهي لم تتأثر، ولا تزال يداكِ تذكُران طريقة لُقِّكِ الرائعة لورق العنب!

قال أدهم عبارته بحماس وهو يراقب نور تُنهي آخر قطعة من ورق العنب المحشي- قبل وضعها في القدر. ابتسمت وهي تقوم بإشعال نار الموقد وتخفيضها إلى أقل درجة، ثم نظرت إليه وقالت بنبرة عفوية ساخرة:

— آه نعم... يا لحظكِ، على الأقل لا تزال يداي تعملان بكفاءة أفضل من دماغي...

ثم أردفت بأسى:

— لديك زوجة لا تذكرك، ولكن بإمكانها الطهوك!... مرحى...
وأومات بيدها بتهكم.

خفض عينيه قليلاً، ثم عاد ونظر إليها وابتسم بحب، ثم قال وهو يلمس وجنتيها ويمرر إصبعه على الندوب الصغيرة التي على جبينها:

— نعم، بالفعل أنا محظوظ لمجرد عودتك إليّ، وسأعتبر أن هذه فرصة ثمينة كي أظفر بقلبك مرة أخرى!

تبسّمت نور ولم ترد، ثم انحنّت كي تفتح الفرن، وأخرجت صينية الدجاج المحمّر، ووضعتها بسرعة على المنضدة الرخامية من شدة سخونتها.

— يا للرائحة الشهية! لكنك أرهقت نفسك بإعداد الطعام، لماذا لم تطلبي المساعدة من نازلي؟

— لا داعي، أحببت أن أقوم بكل شيء بنفسني، لذا منحتها الإذن بالعودة إلى بيتها باكراً، ثم...

صمت لثانية، وأردفت بخجل:

— أردت أن أفعل شيئًا لطيفًا من أجلك. أنت تستحق أكثر من هذا.

اتَّسعت عيناه سرورًا، وارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه.

الساعة الحائطية الكبيرة في غرفة المعيشة تشير إلى التاسعة والنصف مساءً، أو هذا ما لمحتته نور من بعيد أثناء جلوسها على كرسي طاولة العشاء الموضوعة في منتصف الحديقة الخارجية، والتي زينتها الأضواء الصفراء في تمازجٍ شاعري مع لون مياه المسبح التروازية، بينما كان أدهم يتناول آخر قطعة لحمٍ من طبقه. قال وهو يمضغ:

— يا للروعة، لقد أكلت أكثر مما يجب! كل هذا بسبك.

فضحك الاثنان، وقالت:

— بالهناء والعافية.

ثم أردف:

— أحببت فكرة تناول العشاء في حديقة المنزل، لقد مرَّ وقت طويل منذ تناولنا الطعام هنا... فأنت تحبين هذه العادة.

رفعت حاجبها باهتمام وهي تحتسي عصيرها، وقالت:

— أوه حقًا!... أحبُّ هذا؟... جيد!

ثم صمتت لبرهة، وتابعت:

— وماذا أحبُّ أيضًا؟

وضع شوكته وسكينه في الطبق، ومسح فمه بقطعة قماش، ثم فكر للحظة وكأنه يحاول إيجاد أفضل إجابة:

— تحبين الكثير من الأشياء: التسوُّق، والرسم، والرياضة، والشاطئ، والنوم... تحبين النوم كثيرًا.

ثم ضحك.

ابتسمت وهي تدير عينيها قليلًا، ثم قالت:

— والأطفال؟... ماذا عنهم؟

تعكَّرت ملامحه لوهلة، ثم أجاب باقتضاب:

— تحبينهم بالتأكيد... لا أحد يكره الأطفال.

— إذا لماذا ليس لدينا أطفال، طالما أننا متزوجان منذ سبع سنوات؟

تردّدت نبرة صوتها، ثم تابعت:

— أعني، هل هو أمر اختياري أم خارج عن الإرادة؟

كان واضحًا على ملامح أدهم بعض الانزعاج، إلا أنه عدّل جلسته المستريحة إلى أخرى متأهبة:

— لقد كان أمرًا خارجًا عن إرادتنا... لم يحدث الحمل فحسب.

ثم سادت لحظة صمتٍ ثقيلة، وأردف أدهم بعد أن لاحظ علامات التساؤل تملأ عينيها:

— ليس هناك خلل بي أو بك. لقد خضعنا لكل التحاليل والفحوصات اللازمة، ولكن الأمر فقط لم يحدث.

— هل جرّينا الطرق البديلة؟ كالحقن المجهري أو ما شابه؟

سألت بفضولٍ شديد. فأجاب ببرودٍ أشد:

— نعم... لم ينجح ذلك أيضًا.

شعرت نور بضيقٍ ما اجتاحت صدرها، فحاولت تغيير اتجاه الحديث الذي كان غير مريحٍ لأدهم بشكلٍ جليٍّ، فقالت بنبرة حيوية:

— حسنًا، فلننتقل لسؤالٍ آخر... إذا لم يكن هذا سيزعجك؟

أرخی أدهم ظهره مستندًا إلى الوراء، ثم قال وهو يُشعل سيجارته:

— إطلاقًا... فلتسألني ما شئتِ، أحب أسئلتك.

تبَسَّمت نور وتابعت:

— قلتُ لي من قبل إنني يتيمة الوالدين، وليس لي إخوة... هل تعلم كيف جننا إلى تركيا؟ وأنت أيضًا، كيف جئت؟

ردَّ باسترخاء:

— مثلما جاء الكثير من العرب إلى هنا. جئتِ أنت ووالداكِ إلى هنا، وكتبت في عمر التاسعة عشرة، وكان أبوك يعمل في مصنع أنسجة، ووالدتك في مخبز. تُوفِّيَا في السنوات اللاحقة كلاهما بسبب المرض في فترة زمنية متقاربة. كتبت في الجامعة آنذاك تدرسين الأدب. أما أنا، فهاجر والداي بطريقة مشابهة، إلا أنني كتبت في السادسة عشرة من العمر، وبدأ

والذي باكتساب الرزق في التجارة شيئًا فشيئًا حتى تحسّنت أحوالنا للغاية، الحمد لله.

— قلت لي إننا درسنا في ذات الجامعة؟... ما كان اسمها؟ آه يا إلهي، لقد دونته ذاك اليوم...

— "معمار سنان"... نعم، ارتدنا جامعة معمار سنان سويًا، لكنني كنت أدرس فن العمارة، ولم نكن نعرف بعضنا جيدًا آنذاك، كنا مجرد زملاء. توطّدت علاقتنا بعد سنوات وتزوجنا.

قال مبتسمًا.

شردت نور لبرهة، ثم قالت بحزن:

— لا أذكر أي شيء عن ذلك... كل ما يحدث معي حقًا جنوني... آخر ما أذكره هو أنني كنت في الثانوية العامة أترقب نتيجة الامتحانات... كل ما يلي ذلك هو الفراغ، شاشة بيضاء فحسب!

طأطأت رأسها، فسارع أدهم بالتهوين عليها قائلاً:

– عزيزتي، لا تنسي- أنكِ نجوتِ من الموت. تعرّض دماغك لإصابة شديدة جداً. نحن محظوظون أنك هنا الآن، فلا عليكِ. سأساعدك حتى تتذكرى.

– دكتورة سارة قالت إنني قد لا أستطيع أن أستعيد كل ذكرياتي، وأن هناك ذكرياتٍ قد تتلاشى إلى الأبد، وأن فقدان الذاكرة الرجوعي لا يمكن التنبؤ به... لكنها لا تزال تحاول منحي الأمل... مثلك تماماً.

ثم رفعت عينيها ناظرة بامتنانٍ إلى أدهم، الذي تبسّم وقال بصوتٍ منخفضٍ حان:

– أنا معك، لا تخافي من شيء. سنصنع ذكرياتٍ جديدة حلوة سويّاً... أعدك.



"خالٍ من الجلوتين... عالي البروتين... خالٍ من مشتقات المكسرات..."

تتفحص بعينها في حيرة كل تلك التوضيحات على المنتجات الغذائية المرتبة بعناية أمامها على الأرفف، وأخذت تتساءل: هل يا ترى كانت تعاني من حساسية غذائية ما؟! ثم قفز إلى ذهنها تساؤل آخر، أو بالأحرى تعجب، من قدرتها أساسًا على تذكر اللغة التركية وقراءتها والتحدث بها بطلاقة؛ فهي لا تذكر متى تعلّمتها. إلا أن صوت الطبيبة سارة اقتحم شرودها:

– من الطبيعي في حالات فقدان الذاكرة الرجوعي بسبب حادثٍ مؤثرٍ على الدماغ أن يستمر المرء بالاحتفاظ بقدرته على تحدّث اللغات التي اكتسبها مسبقًا، ما دام الصدغ الأيسر- لم يتضرر بقدرٍ كبير؛ فالمهارات كركوب الدراجة، أو عزف آلة موسيقية، أو تحدّث لغة، أو قيادة السيارة، تظل مخزّنة في أماكن عرضية مختلفة في الدماغ.

انقطع شرودها. سحبت علبة من الفواكه المجففة وأضافتها إلى سلّتها، ثم تابعت سيرها عائدة إلى الكاشير. توقّفت في طابورٍ قصيرٍ من الزبائن، وكانت قد لاحظت استراق البائع للنظرات إليها منذ جاءت. وصل دورها

بعد دقائق، وما لبث البائع حتى فتح فمه، الذي كان واضحاً أنه يُغلقه بصعوبة منتظراً الفرصة للحديث، قائلاً:

— حمداً لله على سلامتكِ، سيدة نور.

ردّت باقتضابٍ ونوعٍ من الحرج:

— سلّمك الله، شكراً لك.

— تبدين أفضل حالاً. هذه أول مرة تعودين فيها للتسوّق لدينا بدلاً من نازلي.

ردّت بابتسامة مجاملة:

— آه نعم... أحاول العودة لحياتي الطبيعية... يبدو أنك تعرفني جيداً وتعرف خادمتي.

— بالطبع! أنا كريم صاحب البقالة، وأتم من سكان الحي وجيراننا منذ عدة سنوات.

ثم تابع تسعير البضاعة ببطء شديد كي يتمكن من الثثرة لوقتٍ أطول. شعرت نور ببعض الانزعاج غير المفَسَّر فصمتت، لكنه تابع قائلاً بلهجة فضولية:

— كيف حال السيد أدهم؟

— إنه بخير...

ردّت باختصارٍ شديد.

— يبدو مختلفًا أيضًا.

— ماذا تعني؟

— آه لا، لا شيء سيدتي... تبدو أن أفضل حالًا، هذا فقط ما أردت قوله.

ثم قام بجكّ مؤخرة رأسه بخرج، وقال وهو يجمع أكياس البقالة ويمدها لها:

— تفضلي سيدتي... حسابك 2000 ليرة.

دفعت نور المبلغ، وحملت أكياسها وخرجت من المتجر. ظلّت تسير بخطواتٍ شاردة بطيئة نحو منزلها، وكأنها تريد الانفراد بعقلها قدر

الإمكان. شعرت بالإحباط وبشيء من الغضب لسبب تجهله؛ لربما بسبب عجزها عن تذكر شيء حتى الآن منذ الحادث، وانزعاجها من حقيقة أن عليها أن تأخذ المعلومات عن نفسها من كل من حولها... إلا نفسها!

وصلت إلى منزلها بعد بضع دقائق. ألقت التحية على البستاني الذي يقوم بتشذيب عشب الحديقة، ثم تابعت سيرها نحو باب المنزل الداخلي. فوجئت برؤية نازلي تركض نحوها من خلال زجاج النافذة الجانبية الكبيرة. قامت بفتح الباب لها، وراحت تضم يديها في خجل وتقول بنبرة متوترة:

— آه سيدتي، لماذا ذهبت بنفسك إلى السوق؟ ليتك طلبت مني! سيقوم السيد أدهم بتوييخي!

وطأطأت رأسها في قلق. فردت نور باستغراب:

— وما المشكلة؟ أحببت أن أتمشى - قليلاً وأتسوق بنفسي - فاشتريت القليل من البقالة. ثم لم قد يوبخك أدهم؟

نظرت نازلي في عينيها ببعض الاضطراب وقالت:

— لا... إنه... إنه صارم بعض الشيء فيما يتعلق بسلامتك بعد الحادث؛ فهو قلق عليك طوال الوقت، ويخشى خروجك إلى الشارع وحدك، قد تنسين الطريق أو ما شابه.

تغيرت معالم وجه نور من الاستغراب إلى الانزعاج الواضح بسرعة، وصاحت بنبرة حادة بطيئة وهي تكثر على أسنانها:

— أنا لن أنسى الطريق... فأنا لا أعاني الزهايمر يا نازلي! وسأخرج متى يحلو لي. لن أجلس في المنزل فحسب كالطفل الذي ترعاه مربيته!

ثم ما لبثت أن شعرت بالتعاطف مع خوف نازلي، فغيرت نبرتها إلى أخرى أكثر لطفًا، وأردفت:

— خذي الأكياس، ضعها في المطبخ، وسألق بك كي نرى ماذا سنطهو للعشاء.

— نطهو؟!

سألت بتعجب.

— نعم، نطهو... سنُعد العشاء سوياً هذه الليلة. اسبقيني إلى المطبخ ريثما أُبدّل ملابسِي.

وذهبت نحو الدرج، تاركة على وجه نازلي نظرة بلهاء.



صوت تقطيع الخضروات على اللوح الخشبي، الممتزج برائحة الثوم المحمّر في الزبدة، يملآن المطبخ بالدفع. القدر يغلي على النار، بينما كانت نور تحرك الحساء. لاحظت حركة نازلي المريحة، وكأنه مكانها المفضل في العالم. حاولت أن تبدو ودودة فسألتها:

— هل أنت سعيدة بالعمل معنا يا نازلي؟

— بالتأكيد، سيدة نور، أنا أعمل لديكم منذ تزوجتما.

— جميل...

صمتت للحظة، استندت إلى الشلاجة بخفة وتابعت:

— هل نحن معتادتان على الطبخ سوياً من قبل؟

— كلا سيدتي... من النادر أن نطهو سوياً. كنتِ تحبين، إذا أعددتِ الطعام، أن تُعديهِ وحدكِ، لكنكِ كنتِ تشرفين على العمل إن كان هناك دعوة عشاء في البيت وضيوف.

— فهمت.. إذاً هناك بعض التغيرات التي طرأت على شخصيتي بعد إصابتي.

وضحكت بعفوية.

أجابت نازلي بسرعة غير مقصودة:

— نعم، كثيراً! أنتِ والسيد أدهم لقد تغيرتما. يبدو سعيداً الآن، رغم تركيزه الشديد عليكِ، إلا أنه سعيد. يبدو وكأنه قد استعادكِ من جديد... أتما أفضل من قبل!

ثم رفعت عينيها في دهشة من نفسها، وكأنها شعرت بأنها تحدّثت أكثر مما ينبغي، فصمتت وتظاهرت بالانشغال في تحضير السلطة. لكن نور سألها مباشرة:

— ماذا تقصدين؟ هل كانت علاقتنا غير جيدة سابقاً؟

تلعثت نازلي وأجابت بنجل:

— لا سيدتي... لم أقصد... أعني... الحياة الزوجية تحدث فيها أحيانًا صعوبات، لا أكثر.

ظهر شيء من القلق والحيرة على تعابير نور. لاحظته نازلي بنظرة جانبية سريعة، ثم عادت وهربت بعينيها نحو طبق الخضروات.

— سأذهب لتغيير ملابسني قبل عودة أدهم... أنهى ترتيبات الطاولة في هذه الأثناء لو سمحت.

ثم تحركت ببطء إلى خارج المطبخ... حتى قاطعها صوت رنين هاتفها. مدّت يدها نحو جيب بنطالها الخلفي وأجابت:

— مرحبًا أدهم.

تأمّلت نازلي تعابير وجهها؛ بدت وكأنها تلقت معلومة محبطة. أردفت:

— آه... حسنًا... أراك غدًا إذا.

ثم أغلقت الخط، وخاطبت نازلي وهي تُشبح بنظرها بعيداً:

— لن يأتي السيد أدهم الليلة للعشاء، سوف يتأخر في العمل... ولقد فقدت شهيتي للطعام. بإمكانك أن تتناولي العشاء أنتِ يا نازلي. تصبحين على خير.

صعدت نور إلى غرفتها، فتحت الباب ودلفت إلى الداخل ببرود. رمت نفسها على السرير الواسع، وراحت تتأمل سقف الغرفة للحظات، ثم نهضت. توجهت نحو الحمام، أخذت حماماً بارداً سريعاً، وعادت بعد دقائق للجلوس على طاولة الزينة الخاصة بها. قامت بدهن بعض كريم الترطيب على يديها، وأخذت تتأمل تلك الندوب الصغيرة التي على جبينها. لمستها بيدها، وتلاّأت عيناها بالدموع التي سارعت إلى مسحها كي لا تسمح لنفسها بالدخول في دوامة حزنٍ جديدة.

نهضت عن كرسيها، فإذا بعلبة الكريم تسقط على الأرض وتتدحرج خلف طاولة الزينة، وتستقر عالقة بينها وبين الحائط. تدمرت نور للحظة، ثم جثت على ركبتيها وقامت بحشر يدها في تلك المسافة الضيقة، محاولة الوصول بأصابعها إلى العلبة. ثم فجأة لمست شيئاً ما، شيئاً كان ملتصقاً في

ظهر الطاولة. بدا كالورقة، لكنه أكثر سُمكًا وملتصق بشريطٍ لاصق. قامت بنزعه، ثم أخرجته بحذر...

— صورة!

صاحت بدهشة.

قامت بقلب الصورة، وما إن وقعت عيناها عليها شهقت، واجتاحها صداد مفاجئ كاد أن يشقَّ رأسها. كانت صورة ترتدي فيها فستان زفافٍ أبيض، وتجلس بالقرب من عريسها في حفل زفافها في وسط حديقة جميلة، وقد اتسعت الضحكة على وجهيهما. بدت مشرقة مبتهجة... إلا أن العريس لم يكن زوجها أدهم!

ارتجفت يدها لسببٍ مجهولٍ وهي تتأمل الصورة. تراجعت إلى الخلف، وأسندت ظهرها إلى الحائط. رفعت كفها إلى جبينها تضغط برفقٍ لتسكين الألم، لكن الصداد كان كأنه يطرق من الداخل بإصرار.

سمعت وقع خطواتٍ قادمٍ من الممر، فتجمّدت في مكانها، وخبّأت الصورة سريعًا في الدرج. أمسكت بسطح الطاولة لتبدو طبيعية. دخلت نازلي وعلى وجهها ابتسامة بسيطة:

— سيدتي، هل ترغبين أن أُعدَّ لك شيئًا دافئًا قبل أن تنامي؟

هزّت نور رأسها سريعًا محاولة إخفاء ارتباكها:

— لا... لا، شكرًا، أنا فقط شعرتُ بالتعب قليلًا.

لاحظت نازلي اصفرار وجهها، فاقتربت بخطواتٍ حذرة وقالت:

— أنتِ بخير؟ أظن أن السيد سيقلق كثيرًا إن رآكِ على هذه الحال.

انقبض صدر نور عند سماع الاسم. حاولت التماسك فابتسمت ابتسامة مشوشة وردّت:

— لا بأس... لا تخبريه رجاء، لا أريد أن أقلقه.

ظلت نازلي تحدّق بها لثوانٍ كأنها تريد قول شيء آخر، لكنها ابتلعت كلماتها. اكتفت بإيماءة صغيرة وانسحبت.

بمجرّد أن أغلق الباب خلفها، زفرت نور أنفاسها الثقيلة. التفتت نحو الدرج المغلق وهمست بصوتٍ يكاد يُسمع:

— من كنتُ حقًّا...؟!

مرّت الساعات في تساؤلٍ وحيرة. دخلت فراشها في النهاية بعد عودة أدهم متأخرًا. كانت ليلة طويلة تمر على نور؛ جافاها النوم فيها، تتقلب في سريرها باستمرار. شعرت بيدي أدهم تطوّقانها من الخلف، لكنها كانت تشعر بالضيق والتوجّس عوضًا عن الحب والاحتواء. وسؤال عنيد ظل ينخر رأسها:

— من هذا الرجل في الصورة؟ هل كنت متزوجة قبل أدهم؟ لماذا لم يخبرني بذلك؟ لقد أعطاني تقارير مفصلة عن حياتي في السنوات الأربع عشرة الماضية الضائعة مني، كيف يُسقط هكذا معلومة مهمّة؟ ثم! الصورة... لم هي مخبّأة بعناية هكذا في مكانٍ لا يخطر على بال أحد؟! من خبّأها؟ أنا؟ على الأرجح أنني أنا... لم قمت بتخبئتها؟

تنهدت بقوة. رفعت ظهرها، وقامت بأخذ حبة منوّم من على منضدة السرير. ابتلعته بالفعال، ثم دفنت رأسها بقوة في وسادتها... وغطّت في نوم عميقٍ خلال وقتٍ قصير.

في الصباح التالي كانت تجلس بتوترٍ أمام الطبيبة في غرفة العيادة. لاحظت الطبيبة لغة جسدها المضطربة فبادرت بسؤالها:

— كيف حالكِ يا نور؟ هل تشعرين بتحسّن؟

بدأت نور شاردة تمامًا حتى استوعبت بعد ثوانٍ سؤال الطبيبة، فردت بتلعثم:

— آه نعم... أنا بخير...

صمتت للحظة، ثم قررت أن تُنفس عن مشاعرها، فهرعت قائلة:

— لقد عثرتُ على صورة.

— صورة؟!!

سألت الطبيبة باستغراب.

— صورة ماذا؟

— صورة لي... في ما يبدو زفافي... لكن زوجي لم يكن زوجي الحالي.

ثنت الطبيبة شفيتها باهتمام وقالت:

— آه، صورة من زواجٍ سابق... إذًا ماذا حصل؟

— دكتورة... أدهم لم يخبرني إطلاقًا عن هذا الأمر، رغم أنه أخبرني بالكثير من المعلومات المفصلة عن حياتي قبل الحادثة. فلماذا يستثني

هكذا أمراً مهمّاً؟ ثم... ثم إنني قد راودني حلم بليلة الأمس، وأعتقد أن جزءاً من ذاكرتي عاد من خلاله.

رفعت طبيعتها حاجبها بتعجب:

— لم يخبرك؟!

صمتت لبرهة وكأنها تفكر، ثم تابعت:

— لكن من الجيد أنك رأيت ومضة من ذكرياتك... أخبريني، ماذا رأيت في المنام؟

أخذت نور نفساً عميقاً:

— رأيت ظلالاً أكثر منها صوراً... كما نرقص بلا موسيقى، ضحكاتي تتردد كأصداً في غرفة فارغة. كل شيء من حولي ممّوه كلوحة مبلملة. لحظة أخرى وجدت نفسي -مدّدة على أريكة قديمة، رأسي على قدميه، يده تنزلق ببطء في شعري بينما صوته يهمس: "أحبك". لكن صوته كان يتشظى، كأنه صادر من جهازٍ قديمٍ مشوش. الصور تكسرت أمام عيني مثل صور شاشات التلفاز القديمة، يملؤها التشويش والخطوط المتقطعة...

وفي كل لقطة كنتُ أبتسم، أبتسم بسعادة، لكنها بدت وكأنها ابتسامة شخص آخر.

دوّنت الطيبة ملاحظة في دفترها، ورفعت نظارتها قليلاً بينما تنتظر إلى نور، وقالت بتأنٍ:

— إذا خالجتكِ مشاعر أيضاً مع مرور هذه المشاهد؟

— نعم... نعم، شعرت بشيء لا أعرف وصفه تماماً... هل هو شعور بالحنين؟ أم بالذنب؟ لا أدري... لا أدري!

— مبدئياً... من الجيد جداً أنك أخيراً بدأتِ بتذكر شيء من الماضي، وأن لدينا ما ندوّنه الآن في عمود "تذكّرت" وليس عمود "قيل لي" الممتلئ بالمعلومات. أريدك أن تدوّني أي شيء أو شعور تمرين به أو تتذكرينه، وإن كان صغيراً.

قاطعتها قائلة بعينين شاردين:

— لكنني ما زلت لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يخبرني بهذا الأمر!

— هل ستسألينه؟

رفعت نور عينيها بشكلٍ خاطفٍ نحو الطيبة. نظرت مباشرة إلى عينيها، لكنها في الواقع كانت تبدو كمن ينظر إلى شيء في الفراغ البعيد... ولم تنبس ببنت شفة.

— لا بأس يا نور، ليس عليك أن تحيي الآن. أريدك فقط أن تمنحي نفسك مساحة... أحيانًا الأسئلة تسبق الأجوبة، وهذا طبيعي.

أطرقت نور برأسها، تتأمل يديها المتعرجتين في حجرها. كانت تشعر أن كل كلمة للطيبة تفتح فرعًا جديدًا من الحيرة.



صوت الشاشة الرقمية في الباص يعلو:

— "المحطة التالية هي أرنافوت كوي".

تجلس نور في مقعدها بالقرب من النافذة في شروود تام، ودوامة من الشكوك والأسئلة تكاد تفجر رأسها. توقّف الباص وبدأ الركاب بالنزول، ولم تنتبه نور أنها قد وصلت إلى حيّها سوى في اللحظة الأخيرة قبل انغلاق الباب، فقفزت عن مقعدها وهمت بالنزول على الفور.

توقفت للحظة حاولت فيها استجماع شتات أفكارها وملء رثتها بالهواء النقي قبل أن تبدأ سيرها نحو منزلها، الذي يبعد أمتارًا معدودة عن موقف الباصات. بدأت تسير بخطوات سريعة حتى وصلت إلى البيت. فتحت الباب الخارجي، عبرت الحديقة، دلفت إلى الداخل، ورمت مفاتيحها على الطاولة.

ظهرت نازلي من غرفة المعيشة بوجهها البشوش:

— مساء الخير سيدتي... هل كنتِ في الخارج؟ لم أعرف، فسيارتكِ مركونة في المرآب.

لم ترد نور، وقد كان واضحًا عليها الشرود والانعراج، واستمرت بالصعود إلى غرفتها. دخلت غرفتها وأغلقت الباب بإحكام، توجهت نحو الدُرج، قامت بفتحه ومدّت يدها فأخرجت الصورة. جلست على الأريكة المقابلة للشرفة الكبيرة وراحت تتأملها.

وفجأة لمعت برأسها فكرة. أخرجت هاتفها، فوجدت رسالة نصية من أدهم يقول فيها:

"عزيزتي، كوني جاهزة على دوام الساعة الثامنة، سنخرج للعشاء سويًا في مطعمك المفضل. أحبك".

تجاهلت الرسالة، وتوجهت نحو تطبيق Google Lens. قامت بالتقاط صورة من كاميرا هاتفها لوجه الرجل في الصورة، ثم ضغطت على خيار البحث. وما كانت إلا ثوانٍ حتى ظهرت لها نتائج بحثٍ مطابقة لهذه الصورة من موقع فيسبوك لحساب شخصٍ يُدعى "رامي الخطيب".

اتسعت عيناها وبدأت تتوتر، ثم قامت بفتح حسابه والتصفح فيه.

— إنه نفس الشخص!

حدّثت نفسها بصوتٍ مسموعٍ في دهشة، بينما تتسارع أنفاسها أثناء تصفحها لحسابه، حتى تجمّدت أصابعها فوق الشاشة عند أحد المنشورات، وأحست أن الأرض تهتز تحت قدميها... شيء ما في الصور أعاد ارتجاف قلبها، فاغرورقت عيناها بالدموع.

مرّت بضع ساعاتٍ ثقيلةٍ ممتلئة بالترقب، انتهت بجلوسها مع أدهم على طاولة العشاء في المطعم. كان أدهم يجلس بارتياحٍ وبهجة، راقبته وهي ينادي على النادل بابتسامة عريضة ويحرك يديه بخفة. حاولت قصارى جهدها أن تبدو طبيعية، فأخذت تشاهد المنظر البديع من نافذة طاولتهما المطلة على جامع ساحل "أورتاكوي" الساحر بأضوائه الصفراء الجذابة،

صانعة توليفة مميزة مع أضواء جسر- البوسفور الحمراء والأرجوانية من ورائه.

فقاطع شرودها قائلاً:

– هل أحببتِ المطعم؟ إنه المفضل لديك، فأنتِ تحبين الطعام الآسيوي المقدم هنا في "بانان" كثيراً.

عقدت يديها حول جسدها، بينما تضع قدمًا فوق الأخرى، وقالت وهي ترفع حاجبها بلكنة قريبة من التهمك:

– لا أعلم.. أنتِ أدري.

ثم سارعت لتغيير لغة جسدها قبل أن يستغرب ردها، وأردفت:

– أعني... بالتأكيد إنه مطعم جميل، وإطلالته أجمل.

تبسّم أدهم، وبادلته نور بسمّة مصطنعة. وصل النادل بقائمة الطعام، ثم بدأ العازف على الجانب الآخر بعزف الألحان الرومانسية على البيانو.

– كيف كان يومك عزيزتي؟

سأل باهتمام.

– جيد... يوم جيد.

ردت باقتضاب.

— هل أنت بخير؟

— نعم بخير... متى ستذهب لرحلة عمل بورصة؟

أجابها وهو ينظر إلى قائمة الطعام:

— يوم الأربعاء على الأغلب... لن أتأخر، لا تقلقي. سأغيب ليومين

فقط... ماذا ستطلبين؟

قالت بطريقة عفوية زائفة:

— ما ستطلبه أنت... أيًا كان، سأكل على ذوقك.

مرّ الوقت. وصل الطعام وبدأ الاثنان في تناول عشاءهما. كان أدهم يسترق النظر كل فينة وأخرى لنور، متفحصًا تعابيرها التي كان واضحًا أنها غير طبيعية.

توقف العزف للحظات، وعلا صوت ضجيج حديث الزبائن الذين يملؤون المطعم. قالت نور بنبرة هادئة جامدة، وهي تقوم بتقطيع قطعة اللحم التي أمامها بسكينها دون أن تنظر إلى أدهم:

— متى كنت تنوي أن تخبرني عن زواجي الأول؟

ثم رفعت عينيها بسرعة نحو عينيهِ.

تغيّرت ملامح أدهم تمامًا، ولعدة ثوانٍ بدت عليه نظرة غريبة لم تجد تفسيرها. ثم فجأة طأطأ رأسه، وأنزل شوكته وسكينه نحو طبقه في خيبة ما، ثم قال بصوتٍ منخفض:

— هل تذكرت ذلك؟

— نوعًا ما... عثرت على صورة لي مع زوجي السابق.

رفع رأسه وبدأ مصدومًا، إلا أنه حاول التحكم في انفعالاته:

— صورة؟

سأل بدهشة، ثم تابع بشيء من عدم الارتياح:

— حسنًا يا نور... نعم، كنت متزوجة قبلي بـرجلٍ أيضًا من أصلٍ عربي... تزوجت لمدة ستة أشهر.

— كنت تعرفه؟

سألت وكأنها تختبره.

— نعم.

– بالتأكيد تعرفه، فقد عثرت على حسابه على فيسبوك وتصفحت منشوراته. إنه حساب غير نشط منذ سنوات، وكانت هناك عدة صورٍ لزفافي معه. واحزر ماذا؟ كُتَّ ظاهراً في أحدها... كُتَّ مدعوًا!

– نعم... لقد كنا زملاء جامعة. ثلاثتنا ارتدنا جامعة معمار سنان... كُتَّ حبيبته طوال سنوات الدراسة، وتزوجتما بعد التخرج مباشرة. كان صديقي، على خلافك؛ كانت علاقتنا سطحية.

– لقد توفي يا أدهم! وجدتُ منشورات رثاء من أصدقاء لديه.

قالت وهي متأثرة، ثم صمتت للحظة وأردفت:

– لا أدري كيف لم تخبرني بهذا الأمر! كُتَّ متزوجة وتوفي زوجي السابق. هل ترى أن هذه معلومة هامشية؟!

قال بحرج:

– سأشرح لك كل شيء.

أخذ نفساً عميقاً ثم تابع:

– لم أخبرك يا نور لأن تلك التجربة التي مررت بها كانت صعبة عليكِ جداً. لقد كُتَّ تحبينه كثيراً... ولقد خسرتِه مبكراً وبطريقة مأساوية.

لقد... لقد توفي في حادثة مؤسفة؛ أحد المجرمين قتله أثناء محاولة سرقة سيارته.

صُغت نور، وبدأت نبضات قلبها بالتسارع. اتسعت حدقتها وهي تقول بانفعال:

— يا إلهي! لا أصدق!

قاطعها سريعاً:

— لهذا السبب لم أُرِدِ إخبارك بالأمر. نور، أنتِ مضطربة التفكير حالياً، لا تزالين تكافحين بعد إصابتك، وقد خسرتِ جزءاً كبيراً من ذكرياتك، ونفسيّتك لن تحتل أن أطلعك على هكذا أمر... ليس الآن. أنتِ لستِ جاهزة بنظري... لكن ما حدث قد حدث.

أمسك يديها وتابع:

— نور... بعد وفاة رامي، سمحت لي الظروف بشكل غير متوقع بأن أعرف عليك أكثر. من بعد الجنازة شاء القدر أن تتوطد علاقتنا. كنتُ أحاول التخفيف عنك أنا وبعض الأصدقاء المشتركين، ليس أكثر. لكن مع الوقت لم أستطع أن أخدع نفسي...

رشف القليل من الماء، صمت لبرهة، ثم تابع:

— لقد كنتُ قد بدأتُ بالإعجاب بكِ. مرت الأشهر، وكانت صعبة للغاية عليكِ؛ كنتِ تبكين ليلاً ونهاراً. كنتُ صديقكِ المقرب الذي يحاول مساعدتكِ على التجاوز، لا أكثر. مرت الأشهر، وبشكلٍ غير مقصود كنتُ قد وقعت في حبكِ بالفعل. ولحسن حظي بدأت مع الوقت في تكوين مشاعر تجاهي.

نظر إلى النافذة في شروق وأردف:

— تزوجنا بعد مرور عام... لكن شيئاً ما بداخلي كان دوماً متخوفاً من أنني لن أستطيع أن أملأ مكانه. لربما هذا الخوف أيضاً منعني من تذكيركِ به... لأني وحتى الآن ما زلتُ أشعر بأنه موجود في قلبك.

قال بشيء من الحرج:

— لعلِّي ظننتُ أن هذه فرصة جيدة كي تنسيه تماماً، وأحظى بفرستي الحقيقية في كسبِ قلبكِ من جديد.

طأطأ رأسه وقال بأسى:

— أنا آسف حقاً... كنت أظن أنني أفعل الصواب تجاه علاقتنا.

— لا أصدق... أنا حقاً متفاجئة.

قالت بصوتٍ مرتجف. نظرت إلى أدهم الذي كان حزيناً، فشعرت
بالأسف من أجله. قبضت بيديها على يديه وقالت:

— انظر إليّ يا أدهم...

رفع رأسه ونظر إلى عينيها بعيونٍ دامعة.

— لا بأس... أنا أفهم الأمر الآن. ستكون الأمور على ما يرام.

ابتسمت له لتخفف من وطأة الموقف، وضمت يديه المرتجفتين بحنان...

لكن في داخلها ظل هناك تساؤل وقلق يتردد بلا توقف:

هل هذه كل الحقيقة... أم أن هناك المزيد من الأسرار؟

كانت الأيام القليلة التالية تمرّ على نور كمخاضٍ عسير. ظنّت أنها سترتاح
عندما تعرف حقيقة زواجها السابق من أدهم، وظنّت أنّ باعترافه سوف
تثق به مجدّداً، وسوف تهدأ رياح التساؤلات العاتية التي لم تنفكّ عن
عصف أفكارها. إلا أنّ ما حدث بعد هذا الاعتراف كان مختلفاً تماماً.

وفي عشية يومٍ صيفيّ بامتياز، كانت تجلس على كرسيّ الخشبي العريض
في شرفة غرفة المعيشة الكبيرة المطلّة على الحديقة. مدّت ساقها على

الطاولة المقابلة، واطعة على حجرها جهاز اللابتوب. وقد كانت قد عقدت العزم على أن تفتش عن شيء ما، شيء لا تعرف ماهيته بعد، لكن حدسها ظلّ يحدثها بأنّه شيء قد أخفاه أدهم عنها.

ضغطت على أزرار الكيبورد بحماس بعد دخولها مجدّدًا على حساب "رامي الخطيب". راحت تتقّب بدقّة أكثر داخل منشوراته: في التعليقات، في المشاركات، في الأصدقاء. لاحظت منذ المرّة الأولى التي عثرت فيها على حسابه أنّها غير صديقين على فيسبوك، ولا أدهم أيضًا؛ فهو لا يمتلك حسابًا على فيسبوك من الأساس. لكنها لم تُعر هذه الملاحظة أهميّة آنذاك.

بيد أنّها، من خلال التصفّح، تبين لها أنّ حسابها الحالي حديث الإنشاء، منذ عامين فقط، وعلى الأرجح أنّها نادرة الدخول إليه. عادت لصفحة رامي وظلّت تبحث فيها، حتى لفتتها صورة حساب فتاة من أصدقائه جعلتها تشرد قليلًا. شيء ما حولها بدا مألوفًا. نظرت على حسابها "ماريهان دوغان"، ثم قامت بإرسال طلب صداقة لها.

رشفت قليلًا من كأس الليونادة القريب منها، ثم شعرت بحاجة لدخول الحمام. أغلقت اللابتوب ثم ذهبّت إلى الداخل. وبعد دقائق عادت لترى

أنّ لديها إشعار قبول صداقة من تلك الفتاة. جلست بسرعة، ثم قامت بإرسال رسالة لها:

– "مرحبًا ماريهان".

تراقصت الدوائر الصغيرة سريعًا في صندوق الدردشة.

– "أهلاً... نور؟ نور رشاد؟! هل هذه أنتِ؟!"

تحمّست نور لكون الفتاة تعرفها أيضًا، فردّت سريعًا:

– "أنا نور العارف الآن، لكن نعم أنا هي... كيف حالك؟"

– "يا إلهي! لقد فوجئت برؤية طلب الصداقة من صورتك الشخصية.

لقد مرّ الكثير من الوقت يا فتاة! أنا بخير، كيف حالكِ أنتِ؟"

وأرفعت جملتها برموز تعبيرية مبتسمة وقلوب وردية.

خفق قلب نور بالتّقاد؛ فقد كانت لا تذكر أين التقت بها أو من أين تعرفها،

لكنها كانت متأكدة أنّها تعرفها. فكّرت: ما الذي ستقوله؟ وهل ستبدو

غريبة الأطوار؟

حكّت رأسها قليلاً وكتبت:

– "أنا بخير... عثرت على حسابك بمحض الصدفة. أنا سعيدة بالحديث معك، لكنني أريد اللقاء بك شخصياً للدردشة. هل بإمكاننا ذلك؟"

أرسلت العبارة. رأت النقاط تتراقص تارة، ثم تتوقّف وتعود للتراقص، ثم تتوقّف مجدّداً. بدا الموقف مربكاً لها، حتى أرسلت ماريهان:

– "نعم بالطبع، ولمَ لا... أين تريدان أن نلتقي ومتى؟"

كتبت نور بسرعة:

– "في أي مكان وزمان يناسبك".

– "أنا أقطن حالياً في كوزغونجوك... هل بإمكانك المجيء إلى حديقة فتحي باشا؟ هل تعرفينها؟"

– "أعتقد ذلك، متى نلتقي؟"

– "بصراحة أنا متفرغة اليوم عصرًا... إنها مصادفة لطيفة. بإمكانك القدوم، سأنتظرك على تمام السادسة في الحديقة... تمام؟"

– "تمام بالتأكيد".

تقف امرأة شابة بدت في الثلاثينيات، ترتدي ملابس ضيقة بألوان صيفية، وشعرها مجعد برتقالي، وتضع نظارات شمسية كبيرة، في مطعم تلة حديقة فتحي باشا، ممسكة بهاتفها المحمول، وبدت غارقة في أمرٍ ما.

اقتربت منها نور بتفحص، ثم نادى:

— ميرهان؟

التفتت نحوها بسرعة، ورفعت نظاراتها عن عينيها، ثم صاحت بسرور:

— نور؟! يا إلهي! مرحبًا!

ثم اتجهت نحوها وقامت باحتضانها، ونظرت إليها بدهشة.

قالت:

— يا للروعة يا فتاة! لم تتغيري إطلاقًا، بل ازددت جمالًا! لقد مرّ وقت

طويل منذ التقينا آخر مرة... منذ الجامعة تقريبًا! كيف حالكِ؟

كانت نور تقف متصلبة بشيء من البلاهة لعدم تذكرها جيدًا لهذه الفتاة،

لكنها حاولت أن تبدو لطيفة. فابتسمت ابتسامة واسعة، وقالت وهي

تربت على كتف ميرهان:

— أنا بخير... مسرورة جدًا بقبولك لقاءنا.

قالت ميرهان:

— ماذا تقولين يا فتاة! بالطبع سأحب أن ألتقي برفاق الجامعة القدامى!

ثم قامت بسحبها بظرافة من يدها نحو كرسي الطاولة.

قالت:

— اجلسي، اجلسي... لدينا حديث ممتع طويل!

جلست نور بقليلٍ من الخجل، ثم نظرت إلى الإطلالة الطبيعية الرائعة من أعلى التلة المطلة على ساحات خضراء واسعة تعانق البحر، وجسوره الرابطة بين طرفي المدينة الآسيوي والأوروبي.

قالت:

— المشهد رائع من هنا.

قالت ميرهان:

— نعم بالتأكيد. ألم تأتِ إلى هذه الحديقة من قبل؟

ردّت نور بترددٍ وحرص:

– لا... أعني لست متأكدة! كيف حالكِ أنتِ؟

قالت ميرهان:

– أنا بخير. أعمل كمعلمة في مدرسة كوزغونجوك الابتدائية. مخطوبة لرجل ألماني تعرّفت إليه أثناء رحلة سياحية إلى برلين.

ثم رفعت إصبعها لتشير إلى خاتمها كأنها تنبأه بمزاح.

تابعت:

– والآن نحضّر لعرسنا في نهاية الخريف. ماذا عنكِ؟ لم أسمع أخبارًا عنكِ منذ تزوجت من "أدهم العارف". كيف حالكما؟

شعرت نور بارتباك للحظة من سرعة حديث ميرهان، ثم أجابت:

– آه نعم... نحن بخير... ألف مبارك خطبتكِ.

قالت ميرهان:

– شكرًا عزيزتي. والآن أخبريني: ماذا تفعلين في حياتك؟ هل تعملين؟
تربّين أطفالاً؟

قالت نور:

– كلا... حاليًا لا أعمل. كنتُ أعمل قبل أشهر ككاتبة عمود في صحيفة اجتماعية، لكن توقفت مؤخرًا بسبب بعض الظروف، و... لا... ليس لدي أطفال بعد.

قالت ميرهان:

– أوه... أفهم.

ثم ضيّقت عينيها متفحّصة وجه نور بدقّة، وقالت:

– هل هذه ندوب؟

قالت نور:

– آه... نعم. في الواقع هذا هو سبب لقائي بك اليوم. لقد تعرّضت لحادثة قبل ثلاثة أشهر كدت أفقد فيها حياتي. نجوت بأعجوبة، ولكنني فقدت

جزءاً كبيراً من ذاكرتي، حوالي أربعة عشر عاماً. نصف عمري تقريباً لا أذكر منه شيئاً. رأيت صورتك على فيسبوك، شعرتُ بأنني أعرفك، لكن... لا أذكر تفاصيل علاقتي بك.

قالت ذلك بأسى وهي تشيح بنظرها بعيداً.

شهقت ميرهان وقد بدت عليها الصدمة والتعاطف، ثم قالت:

— يا للهول! حمداً لله على سلامتك يا نور. كم هذا مؤسف!

تابعت نور:

— لهذا السبب أحببتُ أن ألتقي بك كي تحدثيني عن فترة الجامعة، بما أننا كنا زملاء. لعلك تساعدني في تذكر شيء عن حياتي سابقاً.

قالت ميرهان:

— آه يا عزيزتي نور، بالتأكيد. من دواعي سروري أن أساعدك بأي شيء. لكن كيف حدث لك الحادث؟

تنهدت نور، وقالت:

— أنا لا أذكر ليلة الحادثة، لكن ما حدث هو أنني كنتُ مع أدهم في بيتنا الصيفي في "سابنجا"، نقضي- عطلة نهاية الأسبوع. كنت أقوم بتجهيز بعض الزينة وأعلق بعض الأضواء على جدران الشرفة الخارجية. يبدو أنني كنت أقوم بتحضير عشاء شاعري.

ثم قالت ولكنها كوميدية سوداء:

— ثم اختلّ توازني أثناء وقوفي على السلم الصغير بجانب حاجز الحماية الخاص بالشرفة، فسقطت على الأرض من الطابق الثاني.
فتحت ميرهان فمها بدهشة، ثم أطبقته سريعًا.

قالت:

— يا لكِ من محظوظة لنجاتك!

قالت نور وهي تهز رأسها وتنظر جانبًا:

— نعم... أنا كذلك... نوعًا ما.

قالت ميرهان:

— كيف تشعرين الآن؟ هل هناك من تحسن في استعادة ذاكرتك؟

قالت نور:

— ليس تمامًا.

ثم سارعت لرسم ابتسامة مرحة وتابعت:

— دعينا نتحدث عن الجامعة. أخبريني كل ما تذكرينه عني، ولا تجامليني.

قالت ذلك ضاحكة.

ابتسمت ميرهان بلطف.

قالت:

— لقد كنت رائعة، لكنك كنتِ تلك الطالبة المميّزة، ليس دراسيًا، إنما في شخصيتك وهيئتك. بينما درجاتك كانت متواضعة؛ لقد كنت بالكاد تتجحين كل سنة!

ضحكت الاثنان بصوت مرتفع، وعلقت نور:

— يا لها من حقيقة موجعة!

قالت ميرهان:

— ماذا تهم الدرجات المرتفعة؟ المهم الحب. لقد كنتِ محظوظة بالعثور على الحب... ليس مرة بل مرتين.

ثم غمزتها، لكنها شعرت لوهلة بأنها قالت شيئاً غيبياً للتو، فتلعثمت.

قالت:

— تعلمين... أقصد رامي رحمه الله، ثم أدهم.

شردت نور بعيداً، وارتجفت أصابعها فوق الطاولة، ثم قالت بصوت هادئ:

— أخبريني عن رامي.. لو سمحت.

لمحت ميرهان نظرة مختلفة في عيني نور، فابتسمت للحظة في صمت. فكرت قليلاً ثم قالت:

– لقد كنّا أجمل ثنائي في مجموعة الأصدقاء المشتركة. كانت هناك كيمياء عالية بينكما، وحب واضح يتحدث عن نفسه. تزوجتما بعد التخرج مباشرة. لقد كان يحبك بجنون، ولم يستطع أن يصبر أكثر من ذلك.

ثم ضحكت وهي تمسح دمعة رقت في عينيها، بينما نور تبتسم متأثرة بحديثها.

أردفت قائلة:

– كان رامي شخصية محبوبة وطيبة. لقد كان صديقًا حقيقيًا ورائعًا. أيضًا كان صاحب نكتة. كما ننقلب على ظهورنا ضحكًا في حضوره، وفي رحلاتنا الجماعية.

كانت نور تستمع باهتمام شديد إلى حديثها، بينما تابعت ميرهان:

– كان لديه أصدقاء كثير؛ لأنه شخص متواضع للغاية، رغم أنه كان ينحدر من عائلة ثرية. لكنه لم يتعال يومًا على مصادقة الناس الأقل وضعًا ماديًا أو اجتماعيًا... مثلنا نحن: ميرهان ونور وسونجو وعمر وأدهم. تعلمين... الطبقة الوضيعة!

قالت ذلك وهي تنفجر ضاحكة.

ضحكت نور للوهلة الأولى، ثم انقبضت ضحكتها فجأة، وكأنها تعثرت في وسط طريق كلمات ميرهان. فتجمّدت ملاحظها للحظة، وغامت عيناها بظلال تساؤل.

— أدهم؟

تساءلت في داخلها باستغراب:

— لقد فهمتُ منه بأنه ابن أسرة ميسورة الحال!

حدّثت نفسها.

حتى قاطعت شرودها ميرهان قائلة:

— يا لفظاظتي! لم أعزمك على شيء نشره حتى الآن.

رفعت يدها لتنادي النادلة، ثم سألتها بنظرات ظريفة.

قالت:

— ماذا تحبين أن تشرّبي؟ علينا أن نرطب حُلوقنا؛ فما زال الحديث طويلاً!

قالت ذلك بحماس.

ابتسمت نور ابتسامة واسعة مزيفة، محاولة إخفاء ارتباكها الداخلي، ثم
قالت بمرحٍ مصطنع:

— عصير البرتقال... سأشرب عصير البرتقال.



في طريق عودة نور إلى المنزل، بينما كانت تجلس على مقعدها المفضل من
العبّارة أمام البحر، كانت - ولأول مرة - غير مهتمة بتأمل المشهد الساحر.
كان هناك تساؤل لم يتوقف عن نحر رأسها!

أمسكت بهاتفها، وفتحت متصفح جوجل، ثم رفعت عينيها إلى الأمام
قليلاً وهي تفكر، ثم كتبت:

"شركة العارف للشحن والاستيراد"

ظهرت لها العديد من نتائج البحث التي غاصت فيها لعدة دقائق، في
محاولة لمعرفة معلومة واحدة محددة... وقد عثرت عليها أخيراً:

"تاريخ إنشاء الشركة: الثامن من فبراير 2018".

تبيّست أصابعها لثوانٍ على شاشة الهاتف. رفعت رأسها في حيرة وقلق،
وتمتت قائلة:

— منذ سبع سنوات فقط... لقد أنشأ أدهم خطّ البنزنس الخاص به بعد
زواجنا مباشرة! أي إنه لم يكن ابن عائلة ثرية منذ البداية فعلاً كما ادّعى!

اصطدم طفل يركض في الممر بقدمها، فتوقف ليعتذر منها، إلا أنها لم
تنتبه حتى للموقف من شدة شرودها. تعجب الصبي وأكمل ركضه... بينما
كانت نور في عالم آخر تماماً.

حدثت نفسها بصوت شبه مسموع:

— هل تزوجني فقط لأنني كنت أرملة رامي الخطيب الثرية ووريثته
الوحيدة، التي ستفتح له باب المستقبل والنجاح؟ هل أحبني حقاً مثلاً
أخبرني؟ أم أنه كان زواجاً مبنياً على المصلحة؟!

صمت وكأنها تحاول طرد تلك الفكرة المزعجة من رأسها، ثم فكّرت:

— أم لعلها مجرد صدفة وميزة إضافية حصل عليها بزواجه مني... إنه يجنني... لا يمكن أن يكون زواجاً للمصلحة... لقد رأيت نظرة الحب في عينيه، أنا متأكدة!

شاهدت نور المرفأ وهو يقترب منهم شيئاً فشيئاً. عادت ونظرت لها تفهماً، كان أدهم يتصل بها. تسارعت نبضات قلبها، لكنها استجمعت شتات أفكارها وقامت بالرد:

— مرحباً أدهم.

— نور، أين أنتِ عزيزتي؟

— أنا في مرفأ ساحل "بيبيك" الآن... كنت أتنزه قليلاً في حديقة في أسكودار.

كادت أن تخبره بلقاءها بمبرهان، إلا أن شيئاً ما أخبرها ألا تفعل... فتابعت في تلغثم:

— وها أنا عائدة إلى المنزل. تركتُ سيارتي هناك بالقرب من المرفأ... لن أتأخر.

صمت أدهم قليلاً قبل أن يرد:

— حسنًا... أنا الآن في "ساربير"، كنت في اجتماع مع لجنة الإدارة.
سأكون في المنزل خلال ساعة... أحبك.

— حسنًا عزيزي، نلتقي في المنزل... ثم أردفت متلثمثة: أحبك.

مرت الساعات مُعلنة نهاية يوم مميز بطقسه اللطيف. كانت أمسية ذات
نسائم بديعة. تجلس نور بالقرب من أدهم على أثاث الحديقة الخارجية،
التي تزينها النجوم الساطعة في قلب السماء الصافية، والقمر يزيد لها رونقًا
بإكتماله.

كان أدهم يعمل على حاسوبه ويرتشف من مشروبه، بينما كانت نور تتأمل
فحسب.

لاحظ تحديقها به، فابتسم سريعًا وقال:

— هل أبدو وسيماً لهذه الدرجة؟

ارتبكت قليلاً ثم قالت بضحكة متقطعة:

— آه... بالتأكيد... دائماً.

— كيف كان يومك عزيزتي؟

— جيد... لقد حظيت بيوم جيد. وأنت؟

— يوم مثل باقي الأيام... الكثير من العمل فحسب.

ثم عاد وانغمس بتركيز في حاسوبه.

كانت تراقبه بجدة، وكأنها تتمنى أن تدخل إلى عقله وتعرف فيما يفكر.

ظلت عبارة واحدة تدور في بالها باستمرار:

"لم يكن عليه أن يكذب بخصوص وضعه المادي السابق... لقد أصبح
شريعاً بعد زواجه بي. أياً كانت الأسباب، لكنه يستمر بإخفاء الحقائق
وتغييرها لصالحه بعد فقداني لذاكرتي".

لم ترغب بمصارحته بما أخذها عليه؛ لأنها لم تعد تعلم إن كان يجب عليها
الوثوق بروايته للأمور أم لا.

قالت بهدوء:

— سأخذ إلى النوم عزيزي... أشعر بالنعاس.

— آه، كما تشائين عزيزتي... سأنهى ما أقوم به وألحق بك. تصبحين على خير.

قال ذلك دون أن ينظر إليها.

نظرت إليه نظرة باردة مثقلة، ثم دخلت المنزل وذهبت إلى غرفتها. تمددت على سريرها، وغطت سريعاً في نوم عميق لساعات.

حتى استيقظ أدهم على صوت صراخها في منتصف الليل.

انتفضت من نومها، وأخذت تتنفس بقوة وتتعرق. كانت تبدو كمن شاهد كابوساً.

خاطبها قائلاً:

— هل أنت بخير؟ اشربي قليلاً من الماء... الكأس بالقرب منك.

نظرت إليه نور، وقد رأى في عينيها نظرة غريبة أثارت قلقه، وجعلت القشعريرة تسري في جسده... بينما كانت نبضات قلب نور تطرق بجنون، كأنها أصوات طبول حرب!

— أنا لا أستطيع أن أصدقك بعد الآن، دكتورة سارة.

رفعت الطبيبة حاجبها بقلق وهي تدوّن ملاحظاتها، ثم سألت بهدوء:

— ماذا تقصدين يا نور؟ ما الذي لا تستطيعين تصديقه تحديداً؟

تنهدت بعمق وهي تحقق في الأرض:

— كل شيء... ماضيه، كلماته، حتى نظرته حين يقول إنه يحبني... أشعر
وكأنني أعيش مع رجل غريب، ارتدبت معه حياة ليست لي.

— هل لديك سبب محدد يجعلك تشعرين بهذا؟

أطبقت نور كفها بإحكام وقالت مترددة:

— لقد بدأت أكتشف تناقضات... صغيرة، لكنها مثل الشظايا تخرج
عقلي. صديقة قديمة لمحت أن أدهم لم يكن ثرياً، وعرفت بناء على هذه
المعلومة أن نجاحه بدأ فقط بعد زواجنا... وكأنني... وكأنني كنت الجسر-
الذي عبر عليه ليبي مستقبله.

صمتت الطبيبة قليلاً، ثم سألت بصوت منخفض:

— وهل هذا ما يقلقك أكثر؟ المال؟

– لا... ليس المال، بل الكذب! لماذا يكذب عليّ؟ لماذا يحرص على إخفاء الحقائق؟ حتى قصة سقوطي من الشرفة، صرت أتساءل... هل كانت فعلاً مجرد حادث؟

ارتجفت الكلمة الأخيرة وهي تخرج من فمها، كأنها أفلتت من لسانها قبل أن تزنّها.

أمالت سارة رأسها للأمام، وعيناها تلمعان بتركيز:

– نور... لمَ خطر في بالك أن سقطك ربما لم يكن صدفة؟

شعرت نور بدم بارد يسري في عروقها، وانكمشت على نفسها وهمست:

– لا أريد أن أفكر بذلك... لا أريد... لكن... شيء ما بداخلي يصرخ: "احذري منه".

صمتت لوهلة ثم أردفت:

– لقد رأيت حلمًا ليلة أمس، وهو السبب في مشاعري السلبية تجاهه المتزايدة منذ الصباح. رأيت أنني في منزل صيفي، أعتقد أنه منزلنا في "سابنجا". كنت أشاجر معه بشدة، لا أدري لماذا، لكنه كان شجارًا جنونيًا. رأيت نظرة في عينيه زرعت الرعب في أوصالي.

لم تكن كلماتنا واضحة، كانت كمشهد درامي صامت... ثم رأيت نفسي أقف على الشرفة، كأني أحاول استنشاق الهواء الطلق... ثم شعرت... نعم، شعرت به جيدًا.

— ما الذي شعرت به يا نور؟ قالت الطبيبة بقلق.

— شعرت بشيء يدفعني... يدفعني بقوة من الخلف! لكنني لم أراه!... ثم استيقظت في دعر لا يوصف!

ارتجفت ثم قالت بصوت متحشرج:

— لكن ربما أكون مخطئة... ربما ذاكرتي الضائعة تلعب بعقلي!

قالت الطبيبة بصوت جاد:

— الدماغ يا نور جزء شديد التعقيد من أجسامنا، ولا يمكن التنبؤ بسلوكاته، خصوصًا فيما يتعلق بالذاكرة بعد الإصابات العصبية والصدمات النفسية. قد يجرب عنا بعض الذكريات لشدة صعوبة تقبلنا لها، بل وقد يخلق ذاكرة مزيفة بديلة للحقيقية كوسيلة دفاعية ليحمينا من الصدمة الشديدة.

لذا أنا لا أقول لك هنا ألا تبقى بومضات ذاكرتك... على العكس، سنستمع لها، ولكن مع قليل من الحذر؛ لأنها قد تصدق ويكذب من حولنا، وقد تكذب ويصدق من حولنا.

أغلقت الطبية دفترها ببطء واسترسلت:

— إذا لن تتجاهل هذا الصوت. عليك أن تسجلي كل تفصيلة تتذكرينها، مهما بدت تافهة... فرمما ما تظنينه شظايا متفرقة يتحول في النهاية إلى صورة كاملة.

رفعت نور عينيها المرتبكتين نحوها، وعقلها يشتعل بفكرة واحدة لم تستطع الهروب منها:

"هل يعيش معي رجل أحبني... أم رجل حاول أن يقتلني؟"

كانت غرفة نومها غارقة في صمتٍ ثقيلٍ، لم يقطعه سوى الضوء البارد المنبعث من شاشة الحاسوب المحمول أمامها. جلست نور على طرف السرير، عيناها متعلقتان بحرك البحث الذي يزدحم بعشرات الروابط. كتبت بيدٍ مرتجفة: "جريمة قتل رامي الخطيب — إسطنبول".

ضغطت زرَّ الإدخال، فانهاالت عليها عناوين الأخبار القديمة:

"الثور على جثة شاب في ضواحي المدينة".

"جريمة قتل تهزّ هدوء حيّ بوموتي".

"التحقيقات مستمرة مع المشتبه به".

"شاب يُقتل أثناء محاولة سرقة سيارته".

"الشرطة: الضحية قاوم بشدّة فتعرّض لإطلاق النار".

كانت عيناها تجولان في الروابطِ العديدة، حتى وقعت على خبر آخر في موقع محليّ صغير، عنوانه: "إلقاء القبض على المشتبه به في جريمة مقتل رامي الخطيب".

ضغطت بسرعة، فظهرت صورة لرجل مُكبّل اليدين، رأسه منحني، والشرطيّ يمسك بذراعه. اتّسعت عينا نور، كأنّ الشرارة انطلقت في مكان ما داخل ذاكرتها. لم تكن تتذكّره بوضوح، لكن ملامحه لم تكن غريبة عليها...

انحنت للأمام تحدّق أكثر، قرّبت الصورة، ثم همست لنفسها بصوتٍ مرتعش:

— أنا أعرفه... أعرف هذا الوجه... لكن من أين؟

ظلّت تبحث لوقت طويل، حتى استطاعت في نهاية الأمر العثور على اسم المجرم: "مرتضى كوجاك". لكن ما صعّقها حقًا هو اكتشافها في سجلّ البحث الخاصّ بها أنها كانت تبحث عن هذا الاسم منذ عدة أشهر على الإنترنت. لم تستوعب لِمَ كانت تبحث عنه، وكانت تقوم الآن بالشيء نفسه؟!

حدّثت نفسها في توجُّس:

— ماذا كنتِ تفعلين يا نور؟ ما الذي كنتِ تحاولين الوصول إليه قبل تعرّضكِ للحادثة؟!

وفجأة عثرت في إحدى الروابط القديمة في سجلّ البحث على معلومة مفادها أن القاتل من ذوي السوابق والسجلّ الإجرامي الحافل بالسرقات، والكائن بمدينة "إزميت".

رغبة جامحة بداخلها دفعتها نحو الذهاب إلى هناك. شيء ما قاهر حرَّكها، كما الدمية ذات الخيوط، نحو الاستمرار فيما كانت تحاول فعله، رغم أنها لم تكن تذكر أساسًا ما الذي كانت ترنو إليه!

في صباح اليوم التالي كان أدهم على متن طائرة في رحلة عملٍ إلى أنقرة، كما بلغها مساءً، بينما كانت نور تنهي إفطارها على طاولة المطبخ. ودَّعت نازلي بعد أن أنهت شرب آخر رشفة من الشاي، وأخبرتها بأنها ستنتأخر في الخارج اليوم لبعض الوقت.

خرجت من المنزل وتوجَّهت مباشرة نحو المرآب، أخرجت سيارتها، شغَّلت موقع "خرائط جوجل" على شاشة السيارة، اختارت الوجهة "إزميت"، ثم بدأت بالقيادة بشكلٍ آليٍّ تمامًا. لا تعرف ماذا تفعل وإلى أين تذهب، لكنها قادت السيارة نحو إزميت فحسب.

مرَّت ساعة ونصف من القيادة المتواصلة لنور، حتى وصلت إلى إزميت. شعرت بالعطش والتعب، فقررت التوقف قليلًا بالقرب من إحدى المقاهي المحلية؛ لتستريح وتستجمع شتات أفكارها.

ركبت السيارة، وتوجَّهت نحو المقهى الصغير. فتحت الباب ثم دلفت إلى الداخل، وجلست على أقرب طاولة. لم يكن المقهى مزدحمًا، فجاءت النادلة بعد بضع ثوانٍ، ابتسمت لها وقالت:

— مرحبًا... ماذا تحبِّين أن تطلبي، سيدتي؟

وما إن التفتت إليها نور حتى حدَّقت فيها النادلة بفضولٍ، كأنها تريد قول شيء، لكنها آثرت أن تظلَّ صامتةً بهذيب.

— أريد قهوة وقطعة دونات، لو سمحت.

— حاضر... قالت النادلة وهي تدوّن في دفترها الصغير، وما لبثت أن أردفت بلهفة: كيف حال أصدقائك، سيدتي؟... أقصد، أنا أتذكرك. لقد جئت إلى مقهانا منذ عدة أشهر أثناء زيارتك لأصدقائك. تبدين مختلفة قليلًا، لكنني تذكرك.

اتَّسعت عينا نور من الدهشة، لكنها حاولت إخفاء ارتباكها قدر الإمكان، فقالت بصوتٍ تفتعل فيه المرح بالكاد:

— آه، حقًا؟... ذاكرتك حديدية، ما شاء الله! وما اسمهم؟ قالت مازحة، كأنها تختبرها.

فكرت الفتاة للحظة، ثم أجابت بحماس:

– آه نعم... كوجاك... عائلة كوجاك. كنت تبحتين عن منزلهم لأنك تزورينهم للمرة الأولى، وأحببت أن تكون مفاجأة... صحيح؟ ما رأيك بي؟

قالت ذلك ببراءة أقرب إلى البلاهة.

صُدمت نور مما قالته، لكنها تظاهرت بالدهشة والإعجاب، وأردفت:

– واو... أنتِ غير معقولة! كيف تتذكرين هذه التفاصيل لزبون رأيته مرة واحدة منذ أشهر!

ضحكت النادلة وقالت:

– لقد تذكرتك فقط لأنهم جيراننا. كانت مصادفة مميزة، لهذا لم أنس.

لمعت عينا نور انتقادًا، وقبل أن تدير النادلة ظهرها وتذهب قاطعتها قائلة بلكنة مازحة خجولة:

– أنا بحاجة إلى ذاكرتك الحديدية مرة أخرى؛ لأنني نسيت عنوانهم مجددًا.

ثم ضحكت ضحكة مصطنعة واسعة مبالغاً فيها، أثارت استغراب الفتاة لبرهة، لكنها ابتسمت بدورها وقالت:

— هذا مضحك فعلاً... حسناً، سأدوّن لكِ عنوانهم.

أخذت تكتب على ورقة من دفترها بينما تراقبها نور. مزّقت الورقة ثم وضعتها أمامها على الطاولة.

شكرتها نور بتهذيب، وبعد مرور ما يقارب ربع الساعة على تواجدها في المقهى خرجت تبحث عن العنوان المدون على الورقة.

ظلّت تقود لمدة عشر- دقائق وهي تسأل نفسها: "لماذا جئت إليهم مسبقاً؟ عمّ كنتُ أبحث؟"، حتى عثرت على العنوان.

أطفأت محرك السيارة وراحت تتفحص مظهر بيت آل كوجاك. شيء ما بدا غير صائبٍ بخصوصه؛ البيت كان يبدو ثميناً بالنسبة لعائلة متواضعة، بل ولديهم ابن مجرم! أو هذا ما حدّثت به نور نفسها.

ثم قررت أن تفتح باب السيارة وتتشجّع. وما إن وضعت قدمها على الأرض حتى شعرت بصداعٍ مفاجئٍ حادّ. حاولت تجاهله، أغلقت الباب وراحت تتجوّل حول المنزل كأنها لصّ يترقّب.

وقفت أمام باب البيت، أخذت شهيقًا عميقًا، وقررت أن تتجرأ وتقرع الباب... وليحدث ما يحدث!

وفجأة سمعت صوت خُطى أقدامٍ من خلفها. شيء ما جعلها تتسمر في مكانها لثوانٍ، لكنها التفتت بسرعة، فوجدت شابًا نحيلًا يرتدي سروال جينز فضفاضًا، بدا في بداية العشرينيات، واضعًا سيجارة في فمه.

تأملها بعينيه بطريقة لم تُرحمها.

حاولت أن تخفي توترها، وقالت بصوتٍ منخفضٍ متقطّع:

— مرحبًا...

ابتسم لها الشاب ابتسامة صفراء، وقال:

— ماذا؟... هل غيّرتِ رأيك؟

- حبيبي أدهم، لا تتأخر أرجوك. لقد وعدتني بأنك لن تتأخر الليلة!
- كلا، لن أتأخر يا حبيبتى، أعدكِ. سأكون في تمام الثامنة مساءً عندكِ في المنزل الصيفي. هل نازلي ما زالت معكِ؟
- لا، لقد أخبرتها أن تعود إلى إسطنبول بعد أن انتهت من مساعدتي.
- حسناً، حسناً يا عزيزتي نور... استمتعي بوقتكِ حتى موعد لقائنا.
- بالتأكيد، حبيبي... أراك لاحقاً... إلى اللقاء!
- أغلقت نور الخط، ثم قامت مباشرة بمحو تلك الابتسامة المزيفة التي كانت ترسمها على وجهها أثناء المكالمة.
- تحركت بخفة نحو المطبخ، وأخذت تضيف اللمسات الأخيرة على أصناف وجبة العشاء. رتبت الشموع في عدة أماكن وأشعلتها، نثرت بتلات الورد الأحمر في ممر المنزل وصولاً إلى طاولة العشاء.
- ثم أمضت ما تبقى من الوقت في ارتداء فستانها الأسود الأجمل من بين كل فساتينها. أسدلت شعرها العسلي الطويل على ظهرها، وضعت أحمر شفاهها الجذاب، ثم نثرت من عطرها المفضل الفتّان.

مرَّ الوقت أسرع مما تحيَّلت، فإذا بصوت مفاتيح أدهم يصدر عند الباب.
نظرت لنفسها في المرآة بتمعن، كأنها تنظر لأول مرة إلى صورتها المتكاملة.
تدربت على رسم ابتسامة حب بشكل سريع، ثم خرجت من الغرفة على
الفور.

كان أدهم واقفًا عند المدخل، وقد بدا عليه السرور والمفاجأة.

قالت نور بنبرة رقيقة:

— أهلاً، حبيبي... لم تتأخر بالفعل... ثم ابتسمت له.

— واو... ما هذا الجمال يا نور؟

ثم اتجه نحوها، أمسك بيديها وقبَّل كَفَّها، وأردف وهو يتأمل المكان:

— كل شيء يبدو في غاية الجمال... لقد جعلتِ المنزل يبدو رائعاً.

— شكرًا لك، عزيزي.

— سأذهب لأغيرّ ملابسي وأوافيك لتناول العشاء... قال في سعادة.

سارعت بإمساكه من يده بدلال، ثم قالت:

— لا، لا... لا تغير شيئًا. لقد انتظرتك لساعات طويلة، فلنذهب لتناول العشاء الآن؛ فأنا أتضور جوعًا... من فضلك!

تعجب قليلًا، لكنه ضحك من أسلوبها وضمها إليه:

— حسنًا يا قطتي... كما تريدن. نتناول العشاء أولًا وقبل كل شيء..

توجّه الاثنان نحو طاولة العشاء الممتلئة بأطيب الأطباق. قام أدهم بسحب كرسي نور المقابل له، فشكرته وجلست، ثم عاد ليجلس على كرسيه.

قام بفرك كفيه في بهجة قائلاً:

— يا إلهي! ما كل هذا الطعام الشهي؟ سلمت يدك يا نور!

— بالهناء والشفاء، عزيزي... هيا تفضل بالأكل، أوه... أنا حقًا جائعة.

ضحك أدهم، ثم بدأ في تناول طبق "البايلا" الذي أمامه. كان الاثنان يتناولان عشاءهما في سرور، وصدى صوت زنين رسالة وصلت لهاتف نور على جانب الطاولة. نظرت إليها سريعًا... كانت من طبيبتها. أمسكت

به، وقامت بكتابة شيء ما على عجلٍ، ثم عادت وأغلقت الشاشة مباشرة، ثم انفرجت شفتها عن بسمه خفيفة.

مرَّ الوقت بين ضحك وغزل ودردشات متنوعة، ولم يشعر الاثنان بمرور ما يقارب الساعة على بداية العشاء. نظر أدهم بامتنان إلى نور وقال:

— شكرًا لكِ عزيزتي، لقد استمتعتُ حقًا بهذه الأمسية.

— على الرحب والسعة، عزيزي. أحببتُ أن يكون عشاء ذكرى زواجنا الثامنة مميزًا ومختلفًا عن كل ما سبقه.

— إنه مميزٌ فعلاً.

— لا بدَّ له أن يكون كذلك... فهو الأخير لنا سويًا، قبل أن تذهب إلى السجن!

قالت نور عبارتها بشكلٍ طبيعيٍّ جدًّا، وهي تتناول بشوكتها بعض السلطة.

أكفهرَّ وجهُ أدهم من الصدمة، وقال منفعلًا:

— عفوا؟! ما الذي قلته للتو؟!

ردّت نور، وهي تلتقط قطعة سمكٍ صغيرة من طبقها دون أن تنظر إليه:

— أوه... أنت تعلم... ستذهب إلى السجن لقتلك رامي الخطيب.

ثم أنزلت شوكتها للحظة، وأردفت وكأنها تصحّح المعلومة:

— أسفة... أعني لاستئجارك مجرمًا ودفعك له المال لقتل رامي، وجعل

الأمر يبدو كسرقة... الأمران سيّان على كل حال!

ارتعدت فرائص أدهم، وعلت نبرة صوته قائلاً:

— ما هذا الهراء الذي تتفوهين به؟!

رشفت من كأسها بعض الماء، وقالت وهي تتصنّع الدهشة بشكل مبتذلٍ

ساخر:

— أوه، يا للعار!... كيف نسيثُ إخبارك بأنني قد ذهبتُ إلى إزميت منذ

أسبوعين... ولقد حصلت أخيرًا على ما أردتُ الحصول عليه قبل

حادثتي... أقصد قبل محاولتك لقتلي أنا أيضًا.

تجمّدت ملامح أدهم، وراح يتلعثم. وقبل أن يفتح فمه أردفت:

– الجميل في الأمر أنني كنتُ ذاهبة لأحصل على دليلٍ يثبت أنك اشتريت ذمّة القاتل المأجور وأهله، من خلال إثبات أنك أنت من قام بشراء العقار لآل كوجاك... لكنني حصلتُ على شيء أفضل... شيء أفضل بكثير!

قالت بحماسة الأطفال، ثم تابعت وكأنها تقصّ قصة مرحة عليه بهدف استفزازه:

– دعني أخبرك يا عزيزي... تعلم أنك قد استأجرت مرتضى كوجاك لقتل رامي منذ ثمان سنوات، وقبل أن تلقي الشرطة القبض عليه كنت قد عقدت معه صفقة أخرى، وهي ألا يذكر اسمك إطلاقاً في التحقيق ويدخل السجن وحده، في مقابل أن تشتري لأسرته منزلاً جيداً وتضمن لهم حياة كريمة بالمال الذي ستحظى به بعد أن تتزوج بأرملته... وقد وافق.

لكن ما لم تعلمه...

يا الله! هذا هو جزئي المفضل من القصة... قالت ضاحكة.

- أن مرتضى- كان يسجّل حديثكما منذ بدايته، وقد احتفظ بهذا التسجيل سرّاً لدى شقيقه؛ كي يضمن به ابتزازك في المستقبل إن لم تفِ بوعدك له... لكن، لحسن حظه، أنك وفيت بوعدك بالفعل، واشتريت لهم بيتاً وكنت تدفع لعائلته باستمرار المبالغ المالية لتضمن سكوتهم... لكن ما لم تحسب له عائلة كوجاك حساباً أن التسجيل قد وقع في يد ابن شقيق مرتضى... يا له من فتى خسيس وأنا ني!

ضحكت بصوتٍ عالٍ، وتابعت:

- لقد باعني التسجيل وباع مصلحة عائلته مقابل مبلغٍ ماليٍّ يعينه على الهجرة. في الحقيقة كنتُ سأعقد معه الاتفاق منذ أشهر، وكان سيسلمني التسجيل، لكن حادثتي أخرت العملية قليلاً... إلا أنني لا أزال أتساءل بعتبٍ يا أدهم...

قالت متهمّة:

- لماذا حاولت قتلني؟ لقد خيّبت ظني بعد أن استغليتني وخدعتني بحبك الزائف، واستفدت مني كثيراً!

ثم رفعت شعرها عن وجهها بغنج، ونَدّت عن ثغرها ابتسامة انتصار.

نهض أدهم عن كرسيه بغضبٍ، وقد انتفخت أوداجه واحمرَّ وجهه، وتوجَّه نحوها بسرعة. أمسك بها من كتفها ورفعها بقوة عن كرسيها، وراح يحدق في عينيها والشرر يتطاير من نظراته.

قال صارخًا:

— أين هذا التسجيل؟ تكلمي أيتها اللعينة!

دفعت يديه بعيدًا عنها بقوة، وقالت بنبرة تحدّ واشمئزاز:

— هذا ليس من شأنك!

ثم ابتعدت إلى الورااء قليلًا في خوفٍ منه.

جُنَّ جنون أدهم، فأخذ يرمي الأطباق ويكسرها.

قالت نور ببرود:

— إذن هذه هي حقيقتك... ما أنت إلا قاتل وانتهازيّ مخادع... أنا أنقزز منك، وستنال جزاءك أخيرًا.

نظر إليها بعصبية، ثم صاح بصوتٍ حاد:

— أيتها الغبية الحقيرة! هل هذا ما تظنين؟ هل هذا ما عادت به إليك ذاكرتك الوضيعة؟ لقد قتلناه سوياً أيتها البلهاء!... نحن شركاء في هذا العمل يا عبقرية زمانك!

ثم وضع يديه فوق رأسه، وراح يمشي - جيئةً وذهاباً وهو يكلم نفسه كالجنون:

— لقد عادت لجنونها... عادت لجنونها وغبائها حتى بعد أن فقدت ذاكرتها! عادت للتصرف بالسذاجة نفسها! ظننت أنك ستعودين إلى رشدك بعد أن نجوت وفقدت ذاكرتك اللعينة... لكنك عدت مجدداً إلى حماقتك! ما هذا النحس يا الله!

سرت رعشة في جسد نور كتيار كهربائي. تسمرت في مكانها من هول ما سمعت، لكنها عجزت عن الفهم، فقالت بنبرة حادة:

— بماذا تهذي؟ ماذا تعني بشركاء في هذا؟!

التفت إليها في سخطٍ هستيري:

— نعم! لقد تأمرنا على قتله سويًّا أيتها الغبية! ألا تذكرين هذا أيضًا، أم أنكِ تذكرين ما يحلو لكِ وتنسين ما لا تحبين؟!

تسارعت نبضات قلب نور، وبدأت تشعر بتدفق الدم الدافئ في وجهها، وراحت تتلعثم:

— ما... ماذا؟!

— نعم... هذه هي الحقيقة. لقد كنا نعرف بعضنا منذ السنة الأولى في الجامعة. تشاركنا الحب والفقر، وارتبطنا سرًّا؛ لأن لدينا هدفًا كبيرًا ومهمًّا... وهو رامي الخطيب، ابن رجل الأعمال الثري.

كما تتظاهر طوال سنوات الجامعة بأن علاقتنا سويًّا سطحية، بينما كنتُ أعمق صداقتي برامي رويدًا رويدًا. كنتِ أنتِ، على الجانب الآخر، تنصبين له شباك غرامك... وقد وقع فيها بالفعل، ونجحت خطتنا.

لقد كنتِ ممثلة بارعة، وأقنعت جميع الدفعة بأنكما الثنائي المثالي العاشق، بينما أشاهدك بين يديه وأموت غيظًا كل يوم... لكنني احتملت وصبرت لغايتنا الأعلى.

تزوجتما بعد التخرج، واستمرت خطتنا بدخولها المرحلة الأخيرة، وهي التخطيط لقتله بطريقة لا تثير الشبهات...

شعرت نور بأن الأرض بدأت تدور بها، وأخذت تتعرق وترتعش في ذهول، وقد انعقد لسانها تمامًا. كانت كمن يرى شبحًا قديمًا من ذاته في عبارات أدهم.

كل المشاهد... كل التفاصيل التي يتحدث بها صعقت مرأى بصرها، وهي تمر أمام عينيها كشريط السينما.

كان أدهم مستمرًا بالحديث بانفعال، إلا أن صوته تحول إلى طنين... وكل ما كان يتردد في رأسها عبارة الطبية سارة:

"الدماغ جهاز معقد لا يمكن التنبؤ بسلوكاته، خاصة فيما يتعلق بالذاكرة بعد التعرض لصدمات عضوية أو نفسية. قد يحجب عنك ذكريات محددة لصعوبتها عليك... إنها وسيلة حماية دفاعية من الصدمات".

ثم عاد صوت أدهم العالي من جديد يحترق أذنيها، مردفًا:

– نعم، لقد استأجرت قاتلاً... لكن من أين تظنين أنني حصلت على المال منذ البداية كي أدفع له، يا حلوة؟ لقد كان منك! لقد قمت ببيع جزء

من مجوهراتك بعد زواجك كي تعطيني المال، وتتخلص من رامي إلى الأبد
ونستطيع أن نكون سويًا!

انهمرت الدموع من عيني نور، وراحت تغلق فمها بيديها غير قادرة على
الاستيعاب.

جلس أدهم على الأريكة ليهدي من نفسه، وتابع:

— لقد قمنا بأداء أوسكاريّ بعد وفاته... أنتِ الأرملة الحزينة المكسورة التي
تعاني صعوبة في تجاوز خسارتها، وأنا الصديق الوفي الحنون الذي يربّت
على كتفها... استمررنا بالتمثيل بحرفية عامًّا كاملاً أمام الناس، حتى تزوجنا
في نهاية الأمر وحققنا مرادنا... وفزنا بالجائزة الكبرى بعد سنواتٍ من
الجهد العظيم.

رفع حاجبيه بغرور، وقال بسخرية:

— يا للسخرية! أحقًا ظننتِ أنك بريئة من كل هذا؟!

ثم أردف بعجرفة:

— لقد كتبت سعيدة ترقصين فرحًا بعد زواجنا... كتبتِ رائعة، حتى بدأتِ
تفقدن صوابك منذ عامين. لا أعرف ما الذي دهاك! بدأتِ تتغيرين...

تارة نقولين إن الله عاقبنا على فعلتنا بعدم الإنجاب، وتارة نقولين إنك تحلمين برامي وتشعرين بالذنب تجاهه... وبدأ جنونك يتصاعد شيئًا فشيئًا، حتى جاء ذلك اليوم اللعين الذي اكتشفت فيه خيائتي لك.

من هنا فقدت عقلك تمامًا، وانقلبت عليّ، وأخذت تنوحين وتصيحين ليلاً ونهارًا على رامي، وتتفوهين بترهات من نوع: إنك خسرت حبه الحقيقي، وتأمرت على قتل إنسان بريء لم يفعل شيئًا سوى أنه أحبك بصدق...

قال ساخراً وهو يشيح بيده جانباً:

– ومن هذا الهراء!

ورحت تهددينني بفضح كل شيء من مبدأ "عليّ وعلى أعدائي"... لقد تطاولت عليّ كثيراً، وتحوّلت حياتنا إلى جحيم لا يُطاق... حتى جاء ذلك اليوم الذي دفعتك فيه عن الشرفة بعد جدالٍ عنيف.

نعم... أردتُ التخلص منك ومن جنونك إلى الأبد... لكنك، وبشكلٍ عجيب، نجوت!

صمت قليلاً في انزعاج، ثم أردف:

– ظننتُ أن فقدانك لذاكرتك سيسمح لي بفتح صفحة جديدة معك، بلا جنونٍ ولا مخافات... سأحظى بفرصة كتابة السيناريو على طريقتي الخاصة... لكن هيهات! لا تزالين مخبولة لعينة!

ثم نهض، وجرَّ نور من شعرها بقسوة. كانت عاجزة عن مقاومته، مستسلمة منكسرة. ألصقها بالحائط، وأخذ ينظر في عينيها الممتلئتين بالدموع كذئب متوحش، وقال بنبرة تهديدٍ بطيئة، وهو يخنقها:

– والآن... أخبريني... أين هو هذا التسجيل؟

كانت نور تدور بعينيها في الفراغ بلا هدى، كجسدٍ بلا روح. لكنها أجبرت نفسها أخيراً على النظر في عينيه، ثم صرخت بصوتٍ مرتعش:

– سلّمته للشرطة أيها الحقير!... النجدة!

لم يفهم أدهم شيئاً. نظر إليها باستغراب، وما هي إلا ثوانٍ حتى اقتحمت الشرطة المكان من غرف البيت حيث كانوا يختبئون، مطوقين المكان حولهما.

خرجت الطيبة سارة من بين رجال الشرطة، وكانت تبدو مذهولة وهي تنظر إلى نور.

وسرعان ما قام الضابط بتكبييل يدي أدهم بالأصفاد، قائلاً:

— أدهم العارف، أنت مقبوض عليك بتهمة التحريض على قتل رامي الخطيب، والشروع في قتل نور العارف.

اصفرَّ وجه أدهم، وظل متجمّداً في مكانه. تحرك مع الضابط بلا أدنى مقاومة.

بينما كانت نور تترنخ في وقوفها كالشكاري.

اتجه ضابط آخر نحوها بالأصفاد. مدَّت يديها بكل هدوء، بينما كان يخبرها بأنه تم القبض عليها للتحقيق معها بتهمة التآمر لقتل رامي الخطيب.

لم تقوَ قدماها على حملها فسقطت أرضاً.

لكنها رفعت رأسها، وتوجّحت بنظرها نحو الطيبة سارة، ثم أومأت برأسها بحسرة، وقالت والدموع تغسل وجهها:

— لقد كانت مرآتي للحقيقة مكسورة... مكسورة منذ البداية يا سارة...
شكراً لكِ على مساعدتي في ترميمها... لقد رأيتُ الآن الصورة الكاملة
بوضوح.